نهاية الوجود الروماني بالمغرب

ترجمة وتعليق مصطفى أعشي*

تمهيد:

ارتأيت أن أقـوم بترجمة إحدى الـدراسات المتعلقة بتاريخ المغرب القديم الـتي كان لها تأثير كبير في توجيه الـدراسات والأبحاث الأثرية فيما بعد بالمغرب. فـاخترت دراسة للأستاذ جيروم كاركـوبينو(Jérome Carcopino) عنوانهـا: "نهايـة المغـرب الروماني"La fin du Maroc romain.أثارت هذه الدراسة عند صدورها وما تـزال تثـير الجدل والنقاش بين المهتمين بتاريخ المغرب القديم وخاصة ما يتعلق بالمرحلة الأخيرة مـن الاحتلال الروماني لموريطانيا الطنجية (وهو الاسم الذي كان يطلق على شمـال غـرب المغرب في العصر القديم).

* أستاذ باحث بمعهد الدراسات الافريقية بالرباط

ومن الآراء والفرضيات التي طرحتها:

1 ــ إشكالية تراجع النفوذ الروماني عن جنوب موريطانيا الطنجية في نهاية القرن الميلادي الثالث

2 ــ قضية الاتصال بين الموريطانيتين (موريطانيا الطنجية شمال المغرب الحالي وموريطانيا القيصرية غرب الجزائر الحالي).

3 ــ قضية وجود مدينتين تحملان اسم سلا.

بالنسبة للإشكالية الأولى، يعتبر جيروم كاركوبينو أول من درس تخلي الجيش الروماني عن موريطانيا الطنجية الجنوبية ومن ضمنها مدينة وليلي، وذلك بالاعتماد على العديد من الوثائق الأثرية، كالمسكوكات والنقائش ، وبقايا البنايات المدنية والدينية والعسكرية. وقد تأكد الآن انطلاقا من الاكتشافات الأثرية أن التراجع عن جنوب موريطانيا الطنجية قد حصل بالفعل، غير أنه لم يحدث في نفس الوقت تقريبا في كل من مواقع بناسا وتموسيدا وسلا (شالة الحالية) ووليلي، بل حدث على مراحل، كان أسبقها على ما يبدو، التخلي عن موقع تموسيدا، ثم تلتها بناسا وأخيرا وليلي وسلا. ونختلف مع الأستاذ كاركوبينو في أن نهر لوكوس لم يكن يمثل في الواقع الحدود الجنوبية الجديدة لموريطانيا الطنجية أو ما تبقى من موريطانيا الطنجية، التي ألحقت إداريا وعسكريا بأبرشيات إسبانيا. حيث أن الحدود الجديدة لم تكن تتجاوز بعض القلاع والحصون التي كانت تحيط بأهم المراكز الساحلية وخاصة ليكسوس، وأصيلة، وطنجة، وسبتة، وتمودة. بحيث أن هذه القلاع والحصون كانت تكون حول كل مدينة ما يمكن أن نعتبر ليمسا صغيرا خاصا بها.

وفيما يتعلق بقضية الاتصال البري الدائم بين الموريطانيين، يبدو أن هذا الاتصال لم يكن دائما وإنما كان مؤقتا. وهذا اعتمادا على أن التحريات الجديدة التي أجراها برادير (Baradez) شرق سلا مرورا بوادي بهت إلى تازة لم تكشف أي آثار يمكن اعتبارها رومانية، وراء نقطة بوحلو (قرب تازة). ونلفت الانتباه هنا إلى قضية مهمة وهي أن

التحريات التي أجريت لحد الآن في شرق بوحلو بصفة خاصة، والمغرب الشرقي بصفـــة عامة، اتخذت اتجاها خاطئا اعتمادا على أن الممر الأساسي المؤدي إلى الشرق هو ممر تازة. تعود أهمية هذا الممر إلى الوقت الراهن فقط أما في العصور القديمة، فيبدو أنـــه لم يكـــن كذلك. ولذلك فمن الأفضل أن توجه التحريات إلى الممرات المرتبطة بورغـــة وروافـــده المؤدية إلى الأنهار التي تصب في في البحر الأبيض المتوسط.

وبالنسبة لقضية وجود مدينتين تحملان نفس الاسم، فدفاع كاركوبينو عن هـــذه الفكرة راجع إلى أنه لم يقتنع بإمكانية وجود وثائق إيغرافية ونقدية تعود إلى القرن الرابـــع الميلادي في سلا (شالة الحالية)، لأن وجودها في نظره، (أي في سلا)، يعني استمرار النفوذ الروماني فيها. ولذلك دافع على وجود مدينتين تحملان نفس الاسم، وجعل إحداهمـــا في شمال موريطانيا الطنجية الجديدة.

هذه بعض الآراء التي تناولها الأستاذ كاركوبينو في هذه الدراسة القيمة التي نقـــدم ترجمتها تعميما للفائدة.

نهاية المغرب الروماني(1):

كيف أصبح المغرب الروماني في عهد الإمبراطورية السفلى، والذي كانت حدوده فيما سبق تقع بين الأطلس المتوسط وملوية والمحيط الأطلسي؟

ماذا كان مصير موريطانيا الطنجية، التي ألحقت بالعالم الروماني سنة 40م ونظمت كولاية سنة 44م(2)، والتي أخذت مع ازمة القرن الثالث تتقلص إن لم نقل تتفتت ؟

كنا نعتبر لحد الآن (1943) أن الانحدار من عهد الإمبراطورية العليا إلى عهد الإمبراطورية السفلى حدث بوقت قليل قبل سنة 297م، لأننا كنا نحدد تحرير قائمة فيرون (la liste de Vérone) سنة 297 — اعتمادا على مومسن (3)- وتذكـــر هذه القائمة أن أبرشية إسبانيا(4) (Diocese des Espagnes) قد قسمت إلى ست ولايات، وتعتبر موريطانيا الطنجية آخـــر هذه الولايات. ولكن المؤرخين، على الخصوص، متفقون لحد الآن على ان فترة الانتقـــال لم يشعر بها أحد لدرجة أنها لم تصاحب إلا بتغيير شفوي : قرار ديوكلتيـــانوس الإداري

الذي أدى لفك الروابط التي كانت توحد موريطانيا الطنجية بالولاية المجاورة موريطانيا القيصرية ثم إلحاقها بأبرشية إسبانيا.

ومن جهتي، فإني متأكد من ان العكس هو الذي حدث لأن إصلاح ديوكلتيانوس أخذ ينفذ منذ توليه الحكم سنة 284 — 285، سواء في موريطانيا أو في غيرها، ويتضح هذا في التراجع السابق الذي عرفه النفوذ الروماني.

وفي المغرب القديم كان النفوذ الروماني دائما محدودا، باستثناء بعض المراكز التجارية المنعزلة والساحلية، مثل روسادير، التي كانت لا تتصل بباقي المناطق في الإمبراطورية، إلا عن طريق البحر(5). و لم تتجاوز حدود النفوذ الروماني الخط الذي يربط بين الرباط ومكناس وتازة حاليا. وقام ديوكلتيانوس بالتغييرات التي عرفتها الإمبراطورية في عهده، والتي أدت إلى تقليص النفوذ الروماني في المغرب بمقدار النصف، وهذا كله تنفيذا لسياسته أو على الأصح لاستراتيجيته، وذلك حتى يتمكن من الدفاع عن الإمبراطورية التي اختصر عدد جبهاتها. وتحت إسم موريطانيا الطنجية الجديدة، التي أصبحت تابعة إداريا لإسبانيا، و لم تعد تحتفظ تحت سلطتها إلا بالمنطقة المتوسطية الممتدة من الشمال إلى نهر ليكسوس (وادي لوكوس) والتي تطابق اليوم منطقة الاحتلال الإسباني باستثناء طنجة الدولية. أما فيما يخص المغرب الداخلي، بما في ذلك وليلي العاصمة القديمة للملوك الموريطانيين وعاصمة للولاة الرومانيين(6)، فقد غادروه وتركوه لمصيره. ومن بلب المفارقات العجيبة نلاحظ في المناطق التي تركها إداريو وجيوش روما استمرار وجود آثار الحضارة الرومانية بل والديانة المسيحية التي اعتنقتها الأجيال السابقة، بالإضافة إلى أن الاسم الذي كانت تحمله هذه المنطقة ظل لمدة طويلة ملتصقا بها حتى بعد الفتوحات الإسلامية الأولى.

وأؤكد هنا أن رأيي مبني على مجرد تكهنات، لأن كتب الأدب لم تعطينا معلومات كافية عن المغرب القديم سواء في عهد الإمبراطورية العليا أو في نهاية القرن الثالث الميلادي.

نتعرض هنا لتاريخ دون كلمات، ولكن هنالك الأحداث والأفعال المسجلة علـى طول المسالك وتحت خزانات الأنواط (Médailliers) وفي أعماق المخابئ الــتي أمدتنـا بالتماثيل النصفية والتماثيل الكاملة، وخاصة في التوزيع، فإن تاريخ وأشـكال النقـوش، الكتابية التي قام ببحثها أستاذي كسيل(Gsell) والسادة البيرتني(Albertini) وليشـي(Leshi) في منطقة وهران، والسـيد لويـس شـاتلان (Louis Chatelain) ومسـاعده رايمـون توفنو(Raymond Thouvenot) بالمغرب، قد ازداد عددها في الثلاثين سـنة الأخـيرة. إن الأحداث تتحدث بصوت عال وواضح أكثر من الكلمات. ولا أظن أن محاولتي في إعادة البناء تخلو من الحذر والجدوى.

التخلي عن القيصرية وانعكاساتها على الطنجية:

لندخل في اعتبارنا ما حدث في موريطانيا القيصرية، التي كانت تمتـد في عـهد الإمبراطورية العليا من امبساكا(Ampsaga) الوادي الكبير بالجزائر إلى مولوشـا(Mulucha) ملوية، التي قام ديوكلتيانوس بتقسيمها إلا ولايتين: الولاية الغربية التي حافظت على اسـم موريطانيا القيصرية، والولاية الشرقية التي أصبحت تسمى موريطانيا السـتيفية. وتمتـد موريطانيا الستيفية، التي ذكرت مرارا في لائحة الأشراف(Notitia Dignitatiom) (7)، مـن الحدود القديمة لنوميديا عند مصب نهر امبصاكا شرقا إلى وادي روزكـور (Rusuccuru ديلس) غربا بالإضافة إلى ما وراء وادي الصومام والمدن التي كانت توجد على ضفافـه: صالداي (Saldae بجاية) على الساحل، وتوبوسوكتو (Tubusutu تيقلات) في الداخل الـتي جعلها السيد جيوفاني كوستا(Giovani Costa) تنافس الستيفية (Siifitis) فيتجه للتعديلات التي أدخلها عليها ناقلو قائمة قيرون مـن موريطانيـا تابيـا انسـديانا إلى موريطانيـا توبوسوبتتانا (Mauretania Tabia (insidana = Mauretania Tubusubtitana). التي كـانت تغطي وبصعوبة كبيرة ثلث موريطانيا القيصرية القديمة.

وفيما يخص موريطانيا القيصرية الجديدة فقد كانت أبعد من أن تضـم الثلثـين الباقيين. لأن ديوكلتيانوس كان يرمي وراء تقسيماته خلق ولايات ضيقة على أسـس أن

يترك وراء الحدود التي يخططها للإمبراطورية، كل الأراضي، الواقعة بين كينالاف(Cinalaph) (شليف) وملوشا (ملوية)، يعني منطقة وهران الحالية. وبالفعل، فقد وجدت علامة ميلية في غرب الشليف تعود لعهد كاروس (Carus)(282 – 284) آخر إمبراطور، بينما في عهد الأباطرة السابقين يتوقف وجود العلامات الميلية عند تافنا (Tafna). ويعود الفضل في هاته الملاحظة القيمة إلى السيد البيرتيني (Albertini) التي يقول فيها بأن عدم اعتناء ديوكلتيانوس بالطرق العسكرية معناه أنه جعل من مصب الشليف حدودا رسمية لموريطانيا القيصرية الجديدة(8).

إلا أن هناك شيء لم يشر إليه أحد وهو أن ديوكلتيانوس تخلى في نفس الوقت عن الاهتمام بأجزاء من الأراضي المغربية التي كانت فيما سبق تربطها طريقا برية بالمنطقة الوهرانية الحالية(9) وأن التخلي عن ليمس القيصرية الغربية رغبة من الإمبراطور في تقوية الدفاع، جر معه بالضرورة ليمس الطنجية.

لقد كانت غاية الطرق العسكرية والليمس الارتباط المباشر بالتخوم الرومانية لذلك لم يكن الليمس القديم يشترط – مثل الحدود العصرية – خطا مثاليا ورمزيا يشار إليه هنا وهناك ببعض الأعمدة، وإنما كان تنظيما ماديا على هيئة شريط أرضي يشمل:

من الخارج مجموعة من العوائق الطبيعية كالتلال والأودية، وإذا انعدمت فتنشأ عوائق اصطناعية كالخندق الذي تتخلله بعض الأبراج المتفاوتة الأهمية، والواقعة على مسافات ذات أبعاد مختلفة، لتقوية الجهاز الحامي، ومن الداخل توجد طريق موازية تربط بين الأجهزة الدفاعية والمراكز الدفاعية أو القلاع الذي تتخلله. وفي هذه الحالة، فمن المؤكد أنه متى غابت الطريق يغيب معها الليمس أيضا وتلغى الحدود كما حدث للقطاع الواقع بيمن الشليف وملوية في موريطانيا القيصرية إبان حكم ديوكلتيانوس.

أما في المنطقة التي نجد فيها سلسلة من الخنادق وأنقاض القلاع فمن المؤكد أنه كانت خلفها، فيما مضى، تمر الطريق العسكرية التي كان يسلكها جنود الإمبراطورية وهذا ما عرفته موريطانيا الطنجية قبل ديوكلتيانوس.

إننا لا نستطيع مطلقا أن نثير الشك في وجود ليمس مغربي كـــان يحمـــي مـــن الجنوب في اتجاه شرقي – غربي موريطانيا الطنجية. فعلى مسافة 6 كلم من وسط الربـــلط ومن سلاكولونيا (شالة الحالية) عثر على جزء من خندق (Vallum) متميز، يســـــتبعد أن يكون عبارة عن ساقية محلية مهملة، فساقية الفرعون هذه متطورة دفعت الســـــيد رولان ماريشال (M. Rouland Mareschal) إلى وصفها بالتفصيل على مسافة عشرين كيلومـــترا انطلاقا من المحيط الأطلسي(10) إلى بقايا القلعة التي تشرف على الثنية الكبرى لوادي ســـلا (بورقراق)، وبعيدا نحو الشرق تضيع آثار الخندق(Fossatum) وكانت القلاع المنتشرة على طول خط الليمس تسمح بإيصاله إلى جنوب وليلي، وفي اتجاه مكناس أولا، حيث عــــثر الكولونيل هنيزو(Hannezo) سنة 1912 على "بقايا معسكر روماني تحت أنقاض المعســـكر الحالي" وحول جبل العروش سجل السيد لامارتينيير(La Martinière) أطلال حصن يشرف على مكناس وفاس.

ومن فاس إلى منطقة وهران بين جبال الأطلس المتوسط في الجنوب وجبال الريف في الشمال، لا يوجد إلا ممر واحد ممكن،حفرته الطبيعة في شكل أودية متواليـــــة علـــى مسافات وكأن الأمر متعلق بعملية إرشاد وبتقنين عملية سير الناس من شـــاطئ المحيـــط الأطلسي، الذي يصب فيه نهر سبو، سبوس (Subus) القديم الذي يتحدث عنه بلينـــــوس الكبير بقوله:"إنه نهر عجيب ودائم الملاحة". إلى شاطئ البحر الأبيض المتوســـط الـــذي يصب فيه نهر ملوشا (ملوية). ويؤدي وادي فاس إلى إيناون، أحد روافد سبوس، والـــذي من السهل مسايرة مجراه دون مواجهة مصبات الأودية الصغيرة التي تصب فيه واحدا بعـــد الآخر. وعند تخوم تازة نصل إلى منبع إيناون. وبعد 20 كم شرقا ينبع وادي مسون رافـــد ملوشا . ومن ملوشا إلى سيكا (تافنا) الذي يجري، موازيا له، بين نهايتي محطات الليمـــس الخارجي لموريطانيا القيصرية، نوميروس سيروروم (Numerus Syrorum للامغنية) غربـــا وبوماريا (Pomaria تلمسان) شرقا، فإن نقطة المرور المنظمة، نظرا لقربهـــا مـــن وادي إيسلي الرافد الشمالي لنهر سيكا (تافنا)، الذي يروي مركز وجدة. وهكذا فهناك مجموعة

من الأودية يمكن أن توصل من فاس إلى تلمسان وهو ما يطلق عليه خطأ، ممر تازة لأنه في الواقع "ممر طويل من السهول تمثل البوابة الكبرى للدخـول إلى المغـرب مـن ناحيـة الجزائر"(11) وهي الطريق الوحيدة والضرورية للاتصال، والتي حررناها من غارات سكان جبال الريف، ولكن الطريق الذي ظل، قبل تدخلنا دائما مستعملا، والذي كان المغاربـة يطلقون عليه اسم طريق السلطان(12). وباستعمال هذه الطريق التحقت القبائل التي تعمـل تحت إمرة الأمير عبد القادر بالجيش المغربي قرب وادي إيسلي عام 1844م الذي انهزم أمام الجيش الفرنسي تحت قيادة بوجو (Bugeaud). وباستعمال هذه الطريق أيضا، نجد سـنة 106 قبل الميلاد أن الملك النوميدي يوغرطة، الذي دوخ فيالق ماريوس، يلتحـق بـالملك الموريطاني بوكوس الأول، ظانا أنه سيكون في مأمن من الرومان. ولكن الرومان اقتفـوا أثره لا لإلقاء القبض عليه، ولكن لحمل كنوزه الموضوعة قرب ملوشا في أحد المراكز التي وصفها سالوست، وينطبق هذا الوصف على تاوريرت. وبواسطة هذه الطريق كذلك وفي عهد الملوك الموريطانيين، أمثال بوكوس الأول – بعد أسر يوغرطة، وبوكوس الثاني – بعد هزيمة بوغود، ويوبا الثاني الذي ظل طيلة عهده يحاول جمع موريطانيا الداخلية وموريطانيا الخارجية، يعني ثلاثة أرباع الجزائر والمغرب، ظل يحاول تحقيق الوحدة بين الموريطـانيتين وتكوين مملكة موحدة. وأخيرا فبواسطة هذه الطريق لم يتمكن الرومان الذيـن ورثـوا الملوك الموريطانيين والذين اضطروا أن يتبعوهم، فقاموا حسب رأيي بتمديد الليمـس إلى فـاس وإلى المحيط والـذي نظموه – ابتداء من الـقرن الثاني الميـلادي في القيصريـة انطلاقا من أوزيا (Aumale = Auzia) ورابيدم (Masqueray = Rapidum) إلى نومـيروس سيروروم (للامغنية).

واعرف أن هذا الرأي محارب اليوم، وهذا مـؤرخ الليمـس، مثـلا، السـيد فابريسيوس (Fabricius) يعتبر أن الصلة القارية بواسطة ممر تازة بين الموريطانيين مشـكل شديد التعقيد. كما أن السيد دولاشابيل (de la chapelle) نشر منذ وقت قريب بحثا قيما حول حملة سويطونيوس بولينوس(Suetonius Paulinus) التي وقعت سنة 42م بين فيـه أن

الاتصال لم يكن حالة استثنائية(13). وعلى العكس من كل هذا فإني أعتقد أن الاتصـــــال كان عاديا ولا ينقطع إلا في حالة الانتفاضات وتمرد السكان. ولذلك كان من أهـــداف الحكام الرومانيين وجنودهم السيطرة على هذا الممر. هذه هي الحقيقة التي يبــــدو لي أن مكتشفاتنا الأثرية والكتابية تؤكدها والتي سأعرضها باختصار.

1 ـــ فمنذ بداية الاحتلال الروماني كان جنرالات كلوديوس منهمكين في السيطرة علـــى هذا الممر. فإذا أعدنا النظر في حملة سويطونيوس بلولينوس نحو "غير" الأعلى، نجد انه مـــر بلالامغنية، ثم بركنت، رتاندرارا، وسهل تاملالت، وأخيرا تامغنت التي عبر فيها الجيـــش الروماني الأطلس الكبير وشاهد جبل العياشي المكلل بالثلوج. وقد شــــرح الســـيد دولا شابيل هذه العملية وأشار إلى أن أهدافها كانت ترمي إلى طرد بدو"غير" وتثبيط همتهم في المستقبل، خاصة وأنهم كانوا ينتقلون مع مجرى وادي ملوية وسهول كرسيف ووجـــــدة منتجعهم المعتاد. ومن هذه المناطق كانوا يهاجمون القوافل.

2 ـــ وحتى عندما انتهى الاحتلال الروماني بالمغرب نجد في القرن السابع الميـــــلادي أنـــه كانت هنالك علاقات بين الجماعات المسيحية في ألطافا (لامورسيير) وبوماريا (تلمسان) وجماعات وليلي من جهة أخرى(14). وقد ظلت هاته العلاقات مستمرة، مما يجعلنا نفترض أنه كانت هنالك منطقة عبور برية عادية ستصبح فيما بعد طريق السلطان، والتي كـــانت فيما مضى، وبدون شك تستعمل كليمس إمبراطوري.

3 ـــ وهنالك سؤال: هل كان هذا الممر ضروريا لوجود النفوذ الروماني ؟ هذا النفـــوذ الذي لم يتضح إلا بعد 46م وذلك بعد أن قسمت موريطانيا إلى قسمين. موريطانيا الـــتي كونت بين 40 و46م ولاية واحدة فقط استمرارا لما كانت قبل سنة 40م إذ أنها تكـــون مملكة واحدة. وبعد ذلك وفي أوقات مختلفة كانت تتوحد تحت إمرة حاكم واحد.

ـــ في عـــهد كلوديوس كانت الولايتان تحت حكم البروكوراطور فـــاديوس ســيلير (Fadius celer).

ــ في عهد نيرون وكالبا كان اسم البروكوراطور هو لوكيوس البينوس(Lucius Albinus).

ــ في عهد فيسباسيان سنة 75م كان الوالي هو الليكا سيكستوس سنتيوس كايكيليانوس(Sextus Sentius Caecilianus).

ــ في عهد تراجان كان الليكا لوسيوس كويتوس(Lusius Quietus).

ــ وفي عهد هادريانوس كان الوالي هو البروكوراطور ماركيوس طوربو(Marcius Turbo).

ــ في حكم أنطونين الورع سنة 144م كان الوالي هو الليكا أو تيديوس هنوراتوس(Uttedius Honoratus) ثم الذين خلفوه مباشرة.

ــ وفي عهد كمودوس عدد من الليكا نجهل أسماءهم.

ــ وفي عهد سيبتيموس سيفيروس وأبنائه قولى عدد من البروكوراطورات منهم: كنيوس هايوس ديادومينيانوس (Cn, Haius Diadumenianus) وك.سالوستيوس ماكرينيانوس (Q.Sallustius Macrinianus).

ــ وفي عهد الكسندر سيفيروس كان الوالي هو البروكوراكورت. فلافيوس سيرينوس (T. Flavius Serenus) وربما البروكوراطور فوريوس كيلسوس (Futius Celsus).

ــ وفي عهد فاليريانوس تولى عدد من الولاة لا نعرف ألقابهم أو أسماءهم. لكن إذا صدقنا رسالة القديس قبريانوس المؤرخة بـ 256م فنجد أنهم يحكمون الموريطانيتين القيصرية والطنجية معا.

ــ وقبيل تولي ديوكليتانوس الحكم تحدث نص عن دوق موريطانيا (Dux per Mauretaniam) كان يحكم – ربما في الشهور الأولى سنة 284 – الموريطانيتين معا(15).

وبالطبع، لكي تجمع الولايتان تحت إمرة وحاكم واحد فهذا يتطلب وجود طريق برية تربط بينهما، و"نعرف، كما يقول دولاما رتينيير سنة 1912. إن الملاحة في شواطئ المغرب كانت خطيرة وصعبة في قسم كبير من السنة. ولذلك فمن الغريب ألا تفكر

السلطة الإمبراطورية في تحقيق صلة برية ضرورية لاستمرار نفوذها"(16) وانطلاقا من هـذا يمكن القول إن هذه الضرورية الأولية كانت متوفرة، وقد أكدته عـدة نقـوش كتابيـة تتحدث عن تحركات الجيش بين الجزائر والمغرب. فـفي عهد الـوالي فاديوس كيلـير (في عهد الإمبراطور كلوديوس) كان جنود فيلق جيمينا العاشرة(Gemina X) موجوديـن بوليلي وفي البولاي (Albulae عين تموشنت) في نفس الوقت. وفي عهد كالبا كان الجيش المـوضوع تحت إمرة الوالي لوكيوس البينوس(Lucius Albinus)، موزعا بـين مويطـاني القيصرية ومـوريطانيا الطنجية رغم أنه يكون جيشا واحدا...أن هذه التحركـات لا تفرض وجود ممر بري في حالة الانتفاضات والثورات فقط، ولكن وجوده كان ضروريـا حتى في حالة الفترات الهادئة والخالية من المشـاكل، إذ تفرضـه التحركـات العاديـة للمسافرين والبضائع.

4 ــ وبالإضافة إلى كل هذا، هل لدينا مؤشرات على تزامن تطور الأحداث سـواء في غرب أو شرق ملوشا (ملوية). ففي نهاية القرن الثاني الميلادي قوى الأبـاطرة الليمـس الشمالي الذي كان يمتد بين الشليف وتافنا مارا يتيكافا (Tigava)، وكاستيلوم طانجيتـنوم (Castellum Tingitanumالأصنام) والبولاي (Albulae عين تموشنت) بواسطة ليمس ثـان خارج عن السابق وكان يمر عبر الهضاب العليا منطلقا من أوزيـا (Auzia أومـال) إلى نوميروس سيروروم (للامغنية) عبر رابيدوم (ما سكري) وأوزينـازا (Usinaza سـانيك Saneg) وكهورس بروكوروم (Cohors Breucorum هنشير سويق) والامليايـا (Ala Milliaria بنيان) ولوكو (Lucu تيمزوين) وتسـاكورا (Tasaccora شـاتري) وألطافـا (لامور سيير) وبوماريا (تلمسان). وكان الليمس الأخير معروفا بواسطة العلامات الميليـة الممتدة على طول خطه وكانه الغطاء الجديد (nova praesenture) الذي شمل منطقة وهران في عهد سيبتموس سيفيروس وأبنائه. والليمس المغربي كما حددناه نظم علـى أسـاس الاتصال بليمس القيصرية. والقطاع الذي كشفنا عنه جنوب سلا من الممكن أن يكـون إنجازه قد انتهى في عهد الإمبراطور ديقيوس Decius(250 — 251) الذي ظل ذكـراه

موجودا في الاسم الذي يطلقه السكان المحليون على اعماله التي حصن بها مسالك ظهر الأمان. ومهما كانت الأحوال فإن الأعمال لم تبدأ فيه قبل منتصف القرن الثاني الميلادي. لأن محضر الجلسة التي عقدها مجلس العشرة لسلا في 28 أكتوبر 144م والذي يهنئون فيه الحاكم ماركوس سولبيكيوس فيلكس(Marcus Sulpicius (Felix على عمله الواضح في تمتع مدينتهم بأسوار قوية في المناطق المهددة لا يشير مطلقا إلى الليمس الذي يوجد جنوبا على بعد 6 كم من سلا لحمايتها. بل يشير المحضر فقط إلى الهجومات التي يتعرض لها سكان سلا باستمرار(17). لأنه لو كان الجهاز العسكري موجودا لحماهم من هذه الهجومات بل وتحدثوا عنه. ولذلك فيمكن القول إن التجهيزات الدفاعية كانت مواكبة لبعضها ومعاصرة نسبيا. وليمس الطنجية يعكس نفس الأهداف الستراتيجية المتوفرة في التغطية الجديدة للقيصرية، وهو مدعم بخط حقيقي من الحصون المبنية على مساره، كما أنه تنتشر مراكز متقدمة للاستطلاع بين مكان وآخر تتقدم خط الليمس. وعلى طرفي الحدود الإفريقية لم تكن مراقبتهم وحمايتهم متشابهة إذ أنهم أنشأوا حصن سياون (Siaoun) على بعد 40 كم من وسط الليمس الشرقي المار بتيليباري (Tillibari رمادا) وكاستيلوم دميدي (Castellum Dimmidi مساد) على بعد 200 كم جنوب أوزيناكا (سانيك)، وحصن الخضرة على بعد 100 كم من كهورس بروكوروم (Cohors Breucorum هنشير سويق). كما أنهم احتموا على بعد 35كم جنوب مكناس "بالمدينة العسكرية" التي تعرف على أطلالها في اكوراي الكولونيل هانيزو (Hannezo). وعلى بعد 60 كم جنوب فاس بواسطة أطلال حصن اعنوصار الذي عثر لويس شاتلان بين أطلاله على شاهد قبري لأحد أفراد حاميتها وهو عبارة عن فارس من الجناح التوريلني (Ala (Tauriana. وان هذا التشابه الذي لاحظناه في التزامن بين ليمس القيصرية وليمس الطنجية يؤكد الاستمرارية التي سنقدم أدلة مادية عنها.

5 ــ وبما أنها نقطة مهملة فإن الآثار التي لا يتسرب إليها الشك، تؤكد بأن الرومان كانوا قد رسموا الليمس بين فاس وتافنا عبر "ممر تازة".

أ ـــ كان السيد دولاما رتينيير قد كتب منذ سنة 1912 :"اعتمادا على المعلومات الـــتي حصلت عليها من السكان الأصليين، كانت توجد عند البرانس، أطلال تسمى مدينـــة – النصراني في كوزي (Gouzet) ببلاد وربة (Beled Ouerba) على بعد مسيرة نصف يـــوم من تازة، كانت جدرانها مبنية من أحجار غير مهندمة ومن ملاط قـــوي"(18) وفي ســـنة 1919 أشار لوي شاتلان إلى "أنه أثناء إقامة جسر على وادي بوحلو (طريق من فـــاس إلى تازة باستعمال وادي إيناون، وعلى بعد 400م من النهر وعلى ضفته اليمنى عند مســـتوى الجسر) عثر على أشكال ومنحوتات رومانية منها: تاج، وجزء من نصف عمود، وقاعدة عضادة، وقطع متعددة من كورنيس. وعلى بعد 200م وعلى عمق ضعيف أزيح الـــتراب عن قطعتين لجدار مبني من أحجار كبيرة تكون زاوية مستقيمة. كانت هذه الجدران مبنية من كتل حجرية منحوتة بعناية مقامة على أسس حجرية مرصوفة. وأخيرا عثر في إحدى دعامات الجسر على نقش كتابي يحمل ثلاثة حروف د.او.اس (DUS) بحاجة إلى تفسير.

ب ـــ لابد من الإشارة أيضا إلى ان السيدين ألبيرتني وليشي المفتش العام ومدير مصلحـة الآثار بالجزائر قاما بتحريات جوية، حسب الطريقة المتطورة بواسطة الفرنسي بوادبـــارد (Poidebard)، فوق منطقة وهران، فاستطاعا أن يتعرفا ويحددا، بالتصوير الجوي، مكانـــا عـــلى شكل حصن يشبه الحصون – الواقعة عـــلى باقي قطاعات الليمس في الجزائـــر ويقع هذا الحصن على وادي مسون (Mçoum) غير بعيد من المكان الذي أقمنا فيه حصنـــا مشابها ودائما.

ح ـــ وهذا الاكتشاف الأخير يسهل مهمة التعرف على بعض الآثار التي سبق أن سجلت من قبل بالإضافة إلى معسكر روماني محصن.

فهل نسبق الأحداث إذا حاولنا إعادة تكوين خط الليمس بين فاس وللامغنيـــة اعتمادا على هذه الاكتشافات القليلة وعلى المحطات التي وضعت لخدمة الطريق. ولكـــن يكفي تأكيد وجوده بصفة نهائية. وبما أن هذا الليمس يمكن اعتباره استمرارا نحو الغـــرب

لليمس القيصرية، فمن الواضح أن الرومان تخلوا بصفة جزئية عن هذا الأخير، وهذا التخلي أدى إلى انهيار الآخر.

وكنتيجة لهذا، فعندما قرر ديوكلتيانوس أن لا يهتم مطلقا بالطرق العسكرية الواقعة غرب الشليف، فهذا يعني أنه تخلى في نفس الوقت، وبصفة تلقائية، عن الطريق التي تؤدي إلى المغرب. وبعبارة أخرى، وهذا ما أكدته في البداية، فإن الضروريات الستراتيجية للمقاومة والتراجع، فرضا عليه التراجع إلى شرق موريطانيا القيصرية والتركيز غرب كتلة الريف وشمال نهر لوكوس في موريطانيا الطنجية. وتأخذ المنطقة تحت اسمها القديم طابعا جديدا وأصبحت بحرية نتيجة عدم حفاظها على اتصالاتها البرية مع باقي شمال إفريقيا فلذلك اتجهت نحو المضيق (جبل طارق) ولم تعد تكون بالطبع إلا منطقة تابعة إداريا لأبرشية إسبانيا.

إخلاء وليلي:

متى حصل هذا التغيير الجذري ؟

في بحث لكانيا (Cagnat) أبرز فيه أنه إذا كانت قائمة فيرون (La liste de Verone) التي تخبرنا بالتغييرات قد هيئت "مرة واحدة" سنة 297م، فإن التغيرات الناجمة عنها لم تحدث دفعة واحدة، وإنما توالت منذ السنوات السابقة حسب الظروف(19). واعتمادا على هذه الوثيقة القيمة فإن الكتابات تفرض علينا أن نعيد تقسيم موريطانيا القيصرية القديمة إلى قيصرية وستيفية إلى سنة 293 على الأقل. وأن تقسيم نوميديا إلى سيرتية ومليانية، والبروقنصلية إلى زوجيطان وبيزاكسين حدث بين 295 و297. واخيرا نفترض أن ديوكلتيانوس بدأ تقسيمه الجديد للأقاليم الإفريقية من الغرب وهذه هي الحقيقة التي لم يستطع كانيا الإفصاح عنها.

وبالطبع فقد تقرر فصل القيصرية عن الستيفية ليس قبل سنة 293 ولكن من المحتمل أنه قبل سنة 289م. لأن هناك تقدمة لجونون وجدت بصالداي (بجاية) وكتبت قبل 1 مارس 293، تشير إلى وجود الولايتين (القيصرية والستيفية)(20)، وتؤكد أن قيادة

الجيش وتسيير العمليات العسكرية فيهما كانت مسندة إلى قائد واحد هو والي القيصرية أوريليوس ليتوا (Aurelius Litua). وعثر على نقش آخر بالقبائل أحدث عهدا من السابقة ببضعة شهور تسجل بفخر العمليات التي قام بها الحاكم (Praeses) في موريطانيا القيصرية أوريليوس ليتوا انطلاقا من الحصن الواقع عند فج فريكيدا بأراضي موريطانيا الستيفية(21) وهذا بفضل السلطات العسكرية الواسعة التي يتمتع بها. ولذلك فإنه من غير المعقول أن يختار ديوكلتيانوس فترة قلقة ليقوم فيها بالتغييرات الإدارية، وفي نفس الوقت يضع الولايتين تحت إمرة حاكم واحد، حتى يتسنى له استخدام الجيش المتوفر في قمع الثورات. وإذا تذكرنا ما اتى به القديس جيروم (Saint Jerome) من أن ثورة الكوينوكوجينتاتي (Quinquengentanei)، التي انطلقت سنة 289 وظلت تعيث فسادا من وادي الساحل إلى منطقة الحضنة لغاية سنة 292م. وبالضبط في سنة 289م تسلم أوريليوس ليتوا ولاية موريطانيا القيصرية وحقق انتصاراته الأولى على الثوار(22) وهذا ما يجعلنا نعيد تسلمه القيادة الوحيدة على الأقل إلى سنة 288م. ولذلك فيبدو أن هذا التقسيم الإقليمي هو تعويض وتصحيح بعض الأخطاء في المواجهة المسلحة (مع السكان الأصليين).

وبعد ذلك، وعلى الرغم من أن الإيبيغرافيا لم تحدثنا إطلاقا عن وجود حاكم يحمل لقب بريسيس (Praeses) في الطرابلسية، قبل أوريليوس كوينتيانوس (Auréluis Quintianus) (23) الذي أشير إليه كوالي على نوميديا سنة 303(24). إما لأنه غير الطرابلسية بنوميديا أو على العكس النوميدية بالطرابلسية.

والغريب أن ولاية الطرابلسية غير مذكورة في قائمة فيرونا وافترض أن النساخين أسقطوا الاسم في تعداد لا يتضمن إلا ست ولايات بينما نجد سبعا وليس ست ولايات، هي التي جزئت وقسمت. وخطأ من هذا النوع غير محتمل لأنه من المفروض أن نبدأ بالطرابلسية، تبعا للترتيب الجغرافي من الشرق إلى الغرب، الذي اتبعه محرر قائمة فيرون ولذلك فنعتقد بأن الناسخ وضع خطأ سبعة بدلا من ستي وبعد أن خطأ استمر في خطئه

وأعتقد أن البروقنصلية ولاية، وزوجيطان ولاية، بينما هما ولاية واحدة، وهذا ما جعله يضيف ولاية في المجموع.

وهذا يعني إما أن ولاية الطرابلسية أحدثت سنة 297م، أي السنة التي حررت فيها قائمة فيرون والتي تجاهلتها، وإما سنة 302م، أي السنة التي انتقل فيها أوربليوس كوينتيانوس من ولاية نوميديا إلى الولاية الجديدة (الطرابلسية). وهذه التفاصيل تمكننا من أن نحدد بدقة، ونؤكد النتائج الكرونولوجية التي توصل إليها كانيا في بحثه، وتجعلنا نستعيد التقسيم وطريقة تنفيذه، وهذا تطبيقا لإرادة ديوكلتيانوس التي فرضت انطلاقته من الغرب إلى الشرق في إفريقيا الشمالية الرومانية:

1 ـ في سنة 288م على الأكثر قسمت الولاية القديمة موريطانيا القيصرية إلى ولايتين قيصرية وستيفية.

2 ـ بين سنة 295م سنة وسنة 297م قسمت ولاية نوميديا إلى ولاية نوميديا السيرتية وولاية نوميديا العسكرية، وولاية البروقنصلية إلى ولاية زوجيطانا وولاية بيزاكينا.

3 ـ ما بين سنة 297 وسنوات 302 أو 304 أنشئت الطرابلسية.

ويتضح من هذا، أن التقسيم المرتبط بالتراجع بدأ من المحيط الأطلسي واتجه إلى خليج السيرت. وعليه تجب العودة إلى بداية عهد ديوكلتيانوس، إذ انه في سنة 285م بدأت التعديلات غرب موريطانيا القيصرية الجديدة. أما الباقي فمقرون ومتوازن: ربطت الطنجية البحرية بإسبانيا وتم التخلي عن الطنجية القارية.

هذا الافتراض هو الوحيد الذي يمكن أن يؤطر مع التطور العام الذي حصل في إفريقيا الشمالية الرومانية. وبالإضافة إلى هذا، دعم هذا الافتراض بالمراسلات مع إسبانيا التي تكون بها ابرشية إسبانيا المحدد بقائمة فيرون ما بين 283م و288م. وقد تأكد هذا بالإخلاء المنظم للطنجية القارية التي سنتعرف عليها في وليلي، والتي من الممكن التأكيد بانها حدثت في الوقت الذي بدأ فيه التخلي عن الاهتمام بالدفاع وبإصلاح طريق الحدود بمنطقة وهران، غداة تولي ديوكلتيانوس الحكم في روما.

فلنفتح ملف جامع النقائش اللاتينية التي سنلاحظ فيها التناقض الموجـــــود بـــين نقائش طنجة ونقائش وليلي.

ففي طنجة، التقدمات الوحيدة المرفوعة إلى الأباطرة والتي في متناول أيدينـــــا. إحداهـــا مؤرخة بـــ 291 – 292م وهي مرفوعة إلى الإمبراطور ديوكلتيانوس، والأخرى مؤرخـــة بـــ 296م مهداة إلى الإمبراطورين ديوكلتيانوس وماكسيميانوس.

بينما نجد العكس في وليل، إذ لا أثر على الأحجار المكتوبة لنقائش مـــــهداة إلى ديوكلتيانوس أو لأحد خلفائه، هذا في الوقت الذي نجد فيه أن توالي الأباطرة في وليلـــي قبل ذلك، لا تكتنفه أي فجوة، إذ تبدأ بكلوديوس الذي نجد اسمه في قاعدة تمثال يعود إلى سنة 44م وتنتهي بين 276 و282م بثلاث نقائش تتحدث عن بروبوس وتجعلنا نتابع الســير إلى كاروس (282 – 283م) وكاران (283 – 284م) لأن محو أسماء بعض الأباطرة بواسطة الذين خلفوهم، لمحو ذكراهم، أدى إلى طمس أسماء بروبوس من النقائش الثلاث المذكورة سابقا، وهذا ما يؤكد أن سلطتهم وصلت حتى إلى الطنجية.

ولهذا، فإن مجموعات نقائشنا تتوقف في وليلي في الوقت الذي تبدأ فيه بطنجـــة حدث كل هذا في نفس الوقت، وفي عهد ديوكلتيانوس، وكأن الحياة الإمبراطورية تتجدد في طنجة بينما تختفي في وليلي(25).

أما المجموعات النقدية فتبين هذا الاتجاه بقوة أكثر مما يجعلنا نشعر بنفس الانطباع. ففي منطقة طنجة الدولية والمنطقة الإســبانية (ســـابقا) يغلـــب وجـــود مســـكوكات الإمبراطورية السفلى. فمثلا متحف تطوان يعطينا نماذج من النقود الـــتي تعـــود لعـــهد قسطنطين وبعده. ومتحف طنجة يتوفر على مجموعة كاملة لنقود أباطرة القـــرن الرابـــع الميلادي إلى عهد هنوريوس. بينما نجد أن نقود الإمبراطورية السفلى غائبة عن مجموعـــات المنطقة الفرنسية. وفي سلا (شالة) تم جمع حوالي 58 قطعة نقدية حتى عام 1934 منـــها 13 قطعة مقروءة تعود لقسطنطين ومن بعده. لكن هذا لا يعني أن سلا ظلت خاضعة للنفـــوذ الروماني، وإنما يعني فقط أن هذه المدينة الشاطئية ظلت علاقاتها التجارية سارية بواســـطة

البحر دون أي نفوذ سياسي ... بينما في باقي مواقع الطنجية الداخلية لم يعثر لحد الآن على نقود تعود إلى ما بعد نهاية القرن الثالث الميلادي. ففي بناسا لم يتمكن توفنو (Thouvenot) في دراسته للمسكوكات من العودة إلى ما بعد أوريليانوس (270 — 275م). وفي وليلي فمن بين 2717 عملة رومانية مقروءة نجد 11 قطعة تعود للعهد الجمهوري و10 تعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي مقابل 2694 قطعة تغطي الفترة الفاصلة بين أغسطس وبروبوس. وأمام هذا العدد الضخم، نجد عملة واحدة لماكسينس وقطعة واحدة لكونسطانس كلور. و لم يعثر على أي قطعة نقدية تعود لعهد ديوكلتيانيوس وقسطنطين(26). وانطلاقا من هذه المعلومات المادية المعتمدة على النقائش، فإن هذا الإحصاء ينير لنا الطريق ويوضح أن الإمبراطورية الرومانية (كسلطة إدارية وعسكرية) قد اختفت من وليلي كما أنه ومنذ أن فتحنا المجموعات النقدية اكتشفنا أن عملة ديوكلتيانوس قد اختفت من التداول في العاصمة القديمة لموريطانيا الطنجية، وذلك عندما أعطى هذا الإمبراطور الأمر بالتراجع عن وليلي، وأن هذا الإخلاء قد نفذ بنظام من طرف موظفيه وجنوده.

إن الخطوط العريضة للتراجع التي خططها ديوكلتيانوس لم تحدث فقط في إطار الأمر اليومي، الذي سطر سنة قبل 272م في قائمة الإشراف (La Notitia (Dignitatum للجنود الذين وضعوا رهن إشارة كونت الطنجتانية بعد ربط هذه الولاية بابرشية إسبانيا ولكن أهمية هذا التراجع يمكن تقييمه بسهولة، وذلك اعتمادا على عناصر المقارنة التي توفرها عدد من النقائش الجديدة — بالإضافة إلى قائمة الإشراف — وخاصة شهادتان عسكريتان اكتشفهما توفنو سنة 1934 و1935 في أطلال بناسا.

إن أحدث هذه الشهادات كتبت سنة 122م غداة قضاء جنرالات هادريانوس على الثورة، وكان الجيش يتضمن خمسة أجنحة من الفرسان وتسع فصائل من المشاة. أما أقدم هذه الشهادات فقد كتبت في عهد تراجانوس سنة 104م في عهد الهدوء والاستقرار. و لم يكن يتضمن الجيش إلا جناحين وست فصائل. وبدون شك فإن الأرقام — 8

وحدات في المجموع – هي التي كانت تكون جيش موريطانيا الطنجية زمن الســـلم في عهد الإمبراطورية العليا(27).

وهناك ملاحظة أساسية تفرض نفسها، وهي أن مجموع الوحدات الرومانيـــة لم تتغير مطلقا من سنة 109م إلى وسط القرن الرابع الميلادي، لأنـــه إذا كـــانت أجنحـــة الفرسان، في قائمة الأشراف، والتي كان عددها جناحين في الدبلـــوم الأول – الجنـــاح الحامي الأول والجناح الأشتوري الثالث – أصبح واحدا – الجناح الهرقلي – فإن فصـائل المشاة، انتقلت من ست في الدبلوم الأول إلى سبع في قائمة الإشراف.

وعليه، فإن ديوكلتيانوس لم يخفض عدد جنوده في الطنجية، ولكن التغيير الـــذي حصل كان في توزيعهم على الخريطة، لأنه في عهد الإمبراطورية العليا واعتمـــادا علـــى النقائش، لم يكن يوجد بشمال نهر لوكوس إلا حاملتين : إحداهما في طنجة، والأخرى في أبيدوم نوفوم (القصر الكبير)، التي كانت مكونة من الجناح الأول الحامي. وعلى العكـس من ذلك، فإن النقائش العائدة لنفس الفترة تتحدث العديد من المعسكرات الواقعة جنـوب لوكوس في المنطقة الشمالية للمغرب (الفرنسي) والذي كان يغطي فيما سبق الطنجيـــة الداخلية. وتبدو لنا الحاميات موزعة كما يلي: في سلا الجناح الثاني للســـوريين(28)، وفي وليلي جناح بريطاني من رافعي البنوذ(Vexillano Brittonum) وسرية من جناح اوغســـتا الجميلية، وفي عين الشكور عناصر من الفصيلة الرابعة للغاليين والفصيلة الأولى للأشتوريين والكاليسيين وفي سيدي قاسم (اكوادكيكاي Aquae Dacicae ؟) عناصر أخـــرى مـــن الفصيلة الرابعة للغاليين، وفي طوكولوسيدا سرية أخرى من جناح أوغستا الجميليـــة، وفي تموسيدا، عناصر أخرى من الفصيلة الأولى للأشتوريين والكاليسيين، وفي بناسا حامية عدد أفرادها غير محدد نظرا لوجود الجنود القدامى الذين تقاعدوا. إن عدد القوات شمال نهـــر لوكوس قليل وموزع لأن الدفاع عن الطنجية كان مركزا جنوب نهر لوكوس خلال عهد الإمبراطورية العليا. وعند تولي ديوكلتيانوس نلاحظ، مع قائمة الأشراف، تغيرا في الأفـق

إذ أصبحت حاميات الإمبراطورية السفلى تتجمع شمال نهر لوكوس في الوقت الذي يختفي وجودها في الجنوب.

فلنأخذ إذن تعداد قائمة الأشراف التي قدمت لنا لائحة قواد – بريفيكتوس واحد وسبع نقباء(Tribuns) – الوحدات الثمانية الموضوعة رهن إشارة كوميس الطنجية:

1 ـــ قائد (بريفيكتوس) الجناح الهرقلي : تموكو.

- (Praefectus alae Herculeae : Tamuco).

2 ـــ نقيب الفصيلة الإسبانية الثانية : دوكا

- (Tribunus cohortis secundae Hispanorum : Duga).

3 ـــ نقيب الفصيلة الهرقلية الأولى : اولوكوس

- (Tribunus cohortis primae Herculeae : Aulucos).

4 ـــ نقيب الفصيلة الإيتيرية : كاسترابارينسي

- (Tribunus cohortis primae Ityraeorum : Castrabariensi).

5 ـــ نقيب الفصيلة ....: سلا

- (Tribunus cohortis ... : Sala)

6 ـــ نقيب الفصيلة الباكاتيانية : باكاتيانيا

- (Tribinus cohortis Pacatianensis : Pacatiana).

7 ـــ نقيب الفصيلة الأشتورية الثالثة : طابيرناس

- (Tribunus cohortis tertiae Asturum : Tabernas)

8 ـــ نقيب الفصيلة الفريجلية: فريجلاس

- (Tribunus cohortis tertiae Asturum : Tabernas)

لقد حاول المؤرخون، من تيسو(29) إلى كانيا(30)، القيام بتحديد مواقع هذه المراكز المذكورة وتوصلوا إلى تحديد سبعة منها، ولكن موقعا واحدا قاومهم وهو باكتيانا الذي لا شيء "يستطيع مساعدتنا لتحديد موضعه" كما يقول تيسو، بل وإن موقعه الجغرافي "صعب التحديد" كما يؤكد كانيا. ويمكن أن نقترح بأن هذا المركز يرجع الفضل في تسميته إلى البروكوراطور كايوس يوليوس باكاتيانوس(Caius (Iulius Pacatianus) الذي تولى حكم ولاية موريطانيا في عهد سبتيموس سيفروس، وهو فارس أصله من فيينا بغاليا.

وقد بنى هذا المعسكر في نطاق الإجراءات الدفاعية ثم أصبح جزءا من الجـــهاز الدفـــاعي الدائم لموريطانيا الطنجية في عهد الإمبراطورية السفلى.

وبالنسبة لموقع آخر وهو طابيرني فإن تحديد مكانه يفرض نفسه. فاعتمادا علـــى مسالك أنطونين(l'Itineraire d'Antonin) الذي يضع طابيرني بـــين زيـــلي (أصيلـــة؟) وليكسوس (تشميس) فمن المحتمل أن يـــكون للا الجيلالة الواقعة في النهاية الشـــمالية للهضبة التي يغذيها وادي السبت، المجرى المائي الوحيد الذي يصب في المحيط بـــين أصيلة والعرائش، والمـــقامة على قاعدة طبيعية تحمل أطلال معسكر مبني مـــن أحجـــار كبيرة الحجم.

وبتغيير خفيف في شكل النطق والكلمات نستطيع استخلاص وجود ثلاثة مواقـــع أخرى على خريطة المغرب القديم قريبة الشبه بتاموكو. فناشرو قائمة الأشراف، كانيـــا وتيسو، اتفقا على وجود تقارب كبير بين تمودا وتاموكا، وتمودا تقع قرب تطوان العاصمة الحالية للمغرب الإسباني. ففي كلمة أولوكوس أو أدلوكوس، نجد الاسم الذي كـــان يطلق على حصن ليكسوس في الإمبراطورية السفلى لأنه حمل اسم الوادي الذي يتحكـــم فيه الحصن والذي نسميه اليوم وادي لوكوس. وذكره البكري على شكل قريب الشبه بما ذكرته قائمة الأشراف، واولوكوس.

وأخيرا لـــقد كانا على صواب عندما رأيا أن فريكـــلا عبـــارة عـــن تحريـــف لفريجيدين وهو الموقع الذي جعلته مسالك أنطونين بين ليكسوس وبناسا (سيدي علـــي بوجنون) على نهر سبو. ومن المحتمل أنها السوير (Soueir) الذي يعتبر النقطـــة الوحيـــدة الفاصلة بينهما، والتي شوهدت فيها أثار رومانية قرب ينابيع الماء الحلو وهي على بعد 20 كم جنوب لكوس.

والموقع الرابع يذكر عنه تيســـو أن كاسترابارينســـي أو كاستروبانسينســـي أو كاسترابانينسيا هي بناسا على نهر سبو الموجودة على بعد 40 كلم من فريجيدي، بينمـــا كانيا يرى أنها أقرب إلى باب كامبيستريس (Babba Campestris) مســـتعمرة أغســـطس

القديمة المبنية على ما يبدو في سهل ريغا على نهر بهت. وعلى بعد 40 ميـــلا (60كلـــم) شرق الشمال الشرقي لليكسوس وهذا اعتمادا على الإشارات الدقيقة لبلينوس الشيخ.

و لم يبق لنا ما نحدده إلا موقعين هما دوكا وسلا. فبالنسبة لسلا فـــإن كانيـــا لا يشك، مثل تيسو، في أن سلا هي شالة الحالية القريبة من الرباط. ولا يتراجع عن قبـــول توطين دوكا، التي لا نجد أثرا لاسمها في البنيان قرب زينا (Zinna) على طريق طنجـــة – تطوان. وقد سبق لتيسو أن وصف وقاس جدرانا مخربة لقلعة طولها 150م وعرضـــها 90م مبنية من الأحجار الكبيرة ومحاطة بتسع أبراج مربعة الشكل وفي وسطها قلعـــة أخـــرى صغيرة أبعادها 35م على 28م.

وقد قدم تيسو رأيه في دوكا بتحفظ، وكان يعتقد أنه في عـــهد الإمبراطوريـــة السفلى حدث أن "تحولت خطوط الدفاع من الداخل إلى الشاطئ". ومن المؤكد انه كان بالبنيان قلعة مهمة ولكن ليس هناك ما يؤكد أنها سميت دوكا أو باكاتيانا مثلا. أما فيمـــا يتعلق بحدس تيسو، فنرى أنه قد أصاب الهدف فيما يتعلق بدوكا، ولكنه أخطأ الصـــواب عندما وضع كاسترابارينسي في بناسا على نهر سبو وسلا بشالة. وقد دعمها كانيا بنقـــل كاسترا بارينسي نحو الشمال عند بابا كامبيستريس. ولذلك فغير مقبول أن نفتش عـــن سلا قائمة الأشراف قرب الرباط وفي أقصى الحدود الجنوبية للإمبراطورية العليا. ولذلـــك فأرى أنه بإمكاني أن أثبت أنه كان بالمغرب الساحلي سلا أخرى غير سلا (شالة) فقـــد نقلت عن متحف تطوان سنة 1933 وثيقة قاطعة لم تكن قد نشرت من قبل وهي عبـــارة عن قطعة مكتوبة بها:

IVXTADIVINAM
PROVISIONEM
CIVITAS SALENSIS

إن طريقة كتابة السطرين الأولين مطابق للطريقة المعروفة في عهد الإمبراطوريـــة السفلى، إذ أن كلمتي Civitas Salensis المستعملتين لتخليد الولاء لـــلإدارة الرومانيـــة معاصرة لسلا المذكورة في قائمة الأشراف، ومن المحتمل جدا أن تختلط بها، وإلا كيـــف نتخيل انتقال نقيشة حجرية مكتوبة في الرباط وسقوطها في تطـــوان، ومـــهما كـــانت

الأحوال، ولكي نضع حدا لكل التباس نقول إن سلا(Civitas Salensis) القــرن الرابــع الميلادي لا صلة لها بسلا نهر بورقراق التي كانت بلدية في عــهد تراجــان (92 — 117) وأصبحت مستعمرة قبل تحرير مسالك أنطونين. والحقيقة أن هذه الإزدواجية كثــيرة في الجغرافية القديمة لإفريقيا الشمالية: ففي البروقنصلية نجد مدينتين يطلق عليهما هيبو — هما بترزت وبون — ومدينتين يحمــلان اســم توبورســيوم(Thubursicum) — هما خميســا وتبورسك — وتبازتين، إحداهما في نوميديا وهي تيفيش والأخرى في موريطانيا القيصرية. وكان لكل واحدة من الموريطانيتين طنجة : طنجي في موريطانيا الطنجيــة وكاســتيلوم طانجيطانوم (الأصنام) في الجزائر. ولكل موريطانية مدينتها الجديــدة أو بيــدوم نوفــوم (دوبيري) بالجزائر، والقصر الكبير بالمغرب. وكان بموريطانيا الطنجية مدينتان يحملان اسم روسادير: مليلية وأكادير (لاموكادور). ولذلك فليس من المستبعد أن نجــد موقعــين يحملان نفس الاسم: سلا المستعمرة الواقعة قرب الرباط (شالة الحالية) والتي تخلى عنــها الرومان في عهد الإمبراطورية السفلى، ولاسيفيتاس التي حافظوا عليها ودافعوا عنها والــتي لا يمكن أن نحدد موقعها الأقرب تمودا (تطوان).

وبهذا تكون قائمة الأشراف قد وضحت من جديد، وموقع واحد من المواقع التي ذكرها في الأخير وهي فريجيدي كانت تحتل منطقة جنوب نهر لوكوس وعلــى مســافة بسيطة من هذا النهر والذي قد يغطيها في المستقبل. أما الباقي ومن بينها ســلا الواقعــة بمنطقة تطوان، ثم باكاتيانا ودوكا اللتان تدخلان في نطاق الجهاز الدفاعي والموجودتــان شمال نهر لوكوس.

على كل، فإن ديوكلتيانوس خطط للطنجية التابعة لأبرشية إسبانيا حدودا جديدة تشتمل الحدود الجنوبية للمنطقة الإسبانية (سابقا) دون جبال الريف، والذي قام في نفــس الوقت، بتنظيم التراجع عن باقي إقليم موريطانيا الطنجيــة بطريقــة تكشــف عنــها المستخرجات الأثرية بوليلي.

... إن إخلاء وليلي نفذ بصفة عامة على المدينة سواء في الممتلكات الخاصة أو في الأسوار، وإن وضعية المخازن والمخابئ التي عثر فيها على البرونزيات بالخصوص تفترض الفراغ حولها. كما أن التعجيل الذي فرض عدم إتقان تهييء الخزن أتى نتيجة لخطر مفاجئ. فقد وقع التراجع كإجراء وقائي للصالح العام، وبدقة متناهية جعلت الفارين يثقون في عودة – لم تقع أبدا – وخاصة حالة التعجيل في الفرار التي كانت عامة والتي لم تفرض وجود القوافل والرزم. وكأن التعليمات الإمبراطورية جاءت في وقت يحدق الخطر بالمدينة خطر عدو ما. إن التاريخ لا يحدثنا مطلقا من أين أتى هذا الخطر لكن ليس مستحيلا تعيينه باسمه. هؤلاء الفاتحون الذين استقروا بوليلي في سنة 284 أو 285 – ما دام كل أثر للإمبراطورية قد اختفى من وليلي مع كاروس وكاران – ودون أن يصلوا إلى سر المخازن التي أزاحت الحفائر التراب عنها. ومن الممكن أنهم ظلوا بها إلى أن فتح العرب المغرب.

الهوامش:

1) — ظهرت هذه الدراسة لأول مرة في Melanges d'Archéologie et d'Histoire, 1940, pp.349 – 448.

2) — حول إنشاء ولاية موريطانيا الطنجية يذكر الأستاذ مصطفى أعشي في رسالة دبلوم الدراسات العليا التي نوقشت في يونيو 1980 والتي تحمل عنوان: العلاقات السياسية والعسكرية في موريطانيا الطنجية، ص.6."ورغم صعوبة تحديد التاريخ الذي اتخذ فيه الإمبراطوري كلوديوس (41 – 54م) قرار تقسيم مملكة موريطانيا إلا أن التقدمة المرفوعة من طرف وكيل الإمبراطور بموريطانيا الطنجية فاديوس كيلير فلافيانوس ماكسيموس إلى الإمبراطور كلوديوس تؤكد أنه يعود إلى الفترة الفاصلة بين 25 يناير 44 و46م" ونص التقدمة نشره شاتلان Chatelain, Inscriptions latines du Maroc, Paris 1944, n° 116.

3) — ظهرت دراسة مومسن عام 1862 وأعيد طبعها بعد ذلك.

4) — أبرشية إسبانيا وتقسيمها إلى ولايات جديدة تدخل في إطار الإصلاحات الإدارية والإجراءات العسكرية

التي أقدم عليها الإمبراطور الروماني ديوكلتيانوس (284 – 305) لمواجهة الأخطار المحدقة بالإمبراطورية والتي كان من نتائجها التراجع عن عدد من المناطق، وخاصة المهددة، كما حدث في موريطانيا الطنجية.

5) — كانت بالمغرب مدينتان تحملان نفس الإسم وهي مليلية وأكادير لاموكادور حسب كاركوبينو.

6) — ليس هناك شيء يركد أنها كانت عاصمة للملوك المورطانيين أو عاصمة للولاة الرومانيين لأن المدينة التي يمكن أن تحل هذا الإشكال وهي طنجة القديمة لا يمكن أن تمدنا بأي شيء، لأنها تقع تحت المدينة الحالية، وهذا حال ويحول دون إجراء التنقيبات. ومع ذلك فيبدو أن طنجة هي التي كانت عاصمة لموريطانيا الطنجية نظرا لأن موريطانيا تحمل اسم الطنجية، لأنها لو كانت وليلي هي العاصمة لكان اسمها موريطانيا الوليلية.

7) — Notitia dignitatum utruisaue imperi هي قائمة رسمية لوظائف وقوات كل الإمبراطورية الرومانية ويؤرخ تحريرها عادة ما بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي. ويبدو أنها أدخلت عليها تعديلات فيما بعد.

8) — يقول البيرتيني:"يبدو أن الطريق اهملت خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي: وليس بإمكاننا أن نشير إلا إلى علامة ميلية واحدة لكلوديوس وأخرى لكوينتيلوس وواحدة لكاروس...وأخيرا لا وجود لأي علامة ميلية في عهد الإمبراطورية السفلى. أما علامات ديوكلتيانوس الميلية وعلامة القرن الرابع الميلادي المتوفرة في البروقنصلية ونوميديا والتي عثر عليها على سواحل موريطانيا وفي وادي الشيليف. فلا وجود لها في الليمس".

Albertini, dans le Bulletin du cinquantenaire de la Société de Geographie et d'Archéologie d'Oran, 1928, p.49.

9) — بالنسبة للطرق ومشكل الاتصال بين موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية تعرضت لهما بالتفصيل في المرجع السابق ص ص. 41 – 48. وتوصلت فيهما إلى النتيجة التالية وهي:

أ. أن الاتصال بين الموريطانيين لم يكن دائما.

ب. أن البحث عن الآثار الرومانية في ممر تازة وما خلفه أدى إلى عدم العثور على أي شيء ذي قيمـــــة، لأن هذا الممر استمد أهميته في الوقت الحالي فقط ويبدو أنه لم يستخدم كثيرا في القديم.

ت. ولذلك يبدو أن البحث عن الآثار والطرف الرومانية يجب أن يتم عبر وادي ورغة وروافده، ومنـه إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

10) — Rouland Mareschal, le limes de la Tingitane au sud de Sala Colonia, dans les Mémoires présentés à l'Académie des Inscriptions, XIII, 2, 1924, pp. 441 et suiv.

11) — Augustin Bernard, les confins algéro-marocains, Paris 1911, p.15

12) — الفكرة التي تعرضنا لها في الهامش رقم 9 يتحدث عنها السيد كاركوبينو بتأكيده على دور الأودية كممرات ووسائل الاتصال، لذلك نتساءل: ماذا يمنع من أن يكون وادي ورغة وروافده هو الممر الذي كان مستخدما في العصور القديمة بدلا من سبو وروافده وبالتالي ممر تازة ؟

13) — De la Chapelle, Hesperis 1934, p. 113.

14) — حول المسيحية في وليلي وموريطانيا الطنجية ليس هناك ما يؤكد انتشارها إذا استثنينا بعض شواهد القبور وبعض القناديل القليلة العدد وهذا العدد لا يكفي لنقول بانتشار المسيحية في موريطانيا الطنجية ومجاراة كلام كاركوبينو وتوفنو.

15) — C.I.L., VIII, 12, 296.

16) — De la Martinière, Bulletin archéologique du Comité, 1912, p. 164.

17) — للمزيد من التفاصيل حول احداث سلا والليمس راجع أعشي مصطفى، العلاقات العسكرية.. صص. 144 — 171.

18) — De la Martinière, Bulletin archéologique du Comité, p. 164.

19) — Cagnat, La réorganisation de l'Afrique sous Dioclétien, dans Mélanges Louis Havet, Paris 1909, p. 66.

20) — الملاحظ أن الكتابة ذكرت كلمة القيصرية المعروفة باختصار بينما ولاية موريطانيا الستيفية الجديدة فقد ذكرت كلمة الستيفية كاملة.

Tam ex p (rovin cia) Maur (etania) Caes (ariensi) Quam etaim de Siti fensi, CIL, VIII, 8924.

21) — C.I.L., VIII, 20, 215.

22) — تشير الكتابة إلى "السلام" مما يجعلنا نعيد بداية الصراع إلى سنة 289، C.I.L., VIII, 22,763

23) — C.I.L., VIII, 22 , 763.

24) — C.I.L., VIII, 18, 698.

25) — مصطفى أعشي ، المرجع نفسه، الفصل الرابع عشر.

26) — المرجع نفسه.

27) — فيما يتعلق بتوزيع الجيش الروماني في موريطانيا الطنجية وعدد أفراده وأنواعه وتحركاته ينصح بالرجوع إلى الأستاذ مصطفى أعشي في المرجع المذكور سابقا وخاصة الفصل الثاني، ص.ص.20 — 35.

28) — Carcopino, Mélanges de Rome, 1931, p.6.

29) — Tissot, Recherches sur la géographie comparée De la Mauritanie Tingitane, Memoires de l'Aacadélie des Inscriptions, t, IX, 1878, pp. 307 – 308.

30) — Cagnat, l'armée romaine d'Afrique, Paris 1912, pp. 763 – 764.